

الهجرة الواحاتية وإعادة تشكيل الانتماء المحلي لدى مغاربة العالم

مصطفى المريزق-لحسن أمقران-حليمة والمعطي

المملكة المغربية

ملخص:

يتناول هذا المقال الهجرة الواحاتية وعلاقتها بإعادة تشكيل انتماء مغاربة العالم إلى مجالهم الواحية الأصلية، انطلاقاً من النظر إلى الهجرة باعتبارها ظاهرة لا تقتصر على انتقال الأفراد من مجال إلى آخر، بل ترتبط بتحويلات اجتماعية واقتصادية ومجالية، كما تسهم في إعادة تشكيل علاقة المهاجر بمجال الأصل. ويسعى المقال إلى تحليل العوامل المساهمة في تشكل هذه الهجرة، والوقوف على الكيفية التي يستمر بها الانتماء إلى المجال الواحي ويعاد تشكيله في سياق عابر للحدود، إلى جانب إبراز أهم التحليلات التي يتخذها هذا الانتماء.

واعتمد المقال مقاربة وصفية تحليلية، بالاستناد إلى تحليل مجموعة من الدراسات والأبحاث والتقارير التي تناولت الهجرة في عدد من واحات الجنوب الشرقي المغربي، خاصة فجيج وتودغى ودرعة وتافيلالت، مع الاستفادة من عدد من المقاربات النظرية المفسرة للهجرة.

وتبين أن الهجرة الواحاتية لا ترتبط بعامل منفرد، بل تتشكل من خلال تفاعل عوامل بيئية واقتصادية واجتماعية ومجالية، إلى جانب قدرات الأفراد والأسر وتطلعاتهم، ودور الشبكات، وما تتيحه مجالات الاستقبال من فرص وإمكانات، بما يعكس تعدد محددات هذه الهجرة وتعقدها.

كما أظهرت المعطيات أن الاستقرار خارج الواحات لا يؤدي بالضرورة إلى انقطاع الصلة بهذه المجالات الأصلية، بل يعاد تشكيل الانتماء إليها من خلال روابط وممارسات عابرة للحدود تجمع بين الأبعاد الأسرية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والرمزية والعاطفية. ومن بين هذه التحليلات التحويلات والاستثمار والعودة الدورية والروابط الأسرية والزيجات العابرة للحدود والعمل الجماعي والاهتمام بالملكات، إلى جانب استمرار بعض هذه الممارسات عبر الأجيال.

ويخلص المقال إلى أن الهجرة الواحاتية تكشف عن علاقة مركبة بين المغادرة واستمرار الارتباط بالمجال الواحي، مما يجعل الانتماء إليه علاقة دينامية ومتجددة يعاد تشكيلها في سياق الهجرة الدولية.

الكلمات المفتاحية: الهجرة الواحاتية؛ الانتماء المحلي؛ مغاربة العالم؛ المقاربة العبر وطنية؛ المجال الواحي، الهجرة الدولية.

مقدمة:

تشكل الواحات المغربية، ولا سيما بمجالات الجنوب الشرقي، أنساقا محلية ذات خصوصيات بيئية واجتماعية واقتصادية وثقافية، ارتبطت تاريخيا بأنماط خاصة في تدبير الموارد والتنظيم الاجتماعي والاستقرار السكاني. وقد أسهم هذا التداخل بين المجال والموارد والعلاقات الاجتماعية في تشكيل أنماط عيش محلية ارتبطت بالزراعة والرعي والتجارة والروابط الأسرية والجماعية. غير أن هذه المجالات عرفت، خلال العقود الأخيرة، تحولات متعددة مست شروط العيش داخلها، ارتبطت بتراجع بعض الأنشطة التقليدية، ومحدودية الموارد وفرص الشغل، والتغيرات البيئية، إلى جانب تغير تطلعات السكان وانفتاحهم على مجالات أخرى، مما جعل الهجرة، وخاصة الدولية منها، إحدى الظواهر البارزة في عدد من الواحات.

ولا تقتصر الهجرة الواحاتية على انتقال الأفراد خارج مجال الأصل، بل تطرح أيضا مسألة استمرار العلاقة بين المهاجر والمجال الذي غادره. فالهجرة لا تعني بالضرورة انقطاع الصلة بالواحة، وإنما قد تعيد تنظيم هذه العلاقة في ظل الاستقرار داخل مجتمع آخر، حيث تستمر الروابط الأسرية والاجتماعية والاقتصادية والرمزية، وتتخذ أشكالا مختلفة عبر الزمن والأجيال. ومن هنا يكتسب مفهوم الانتماء المحلي أهمية تحليلية، لأنه يتيح فهم الكيفية التي يستمر بها مجال الأصل في الحضور ضمن مسار المهاجر وتمثالاته وممارساته رغم البعد الجغرافي.

وانطلاقا من ذلك، يسعى هذا المقال إلى تحليل العوامل المساهمة في تشكل الهجرة الواحاتية، والوقوف على الكيفية التي يعاد من خلالها تشكيل انتماء مغاربة العالم إلى مجالهم الواحية، وعلى أبرز التحليلات التي يتخذها هذا الانتماء في سياق الهجرة الدولية. ومن ثم، تتمحور إشكاليته حول السؤال الآتي: **ما العوامل التي تسهم في تشكل الهجرة الواحاتية، وكيف يعاد تشكيل انتماء مغاربة العالم إلى مجالهم الواحية الأصلية في سياق عابر للحدود؟**

ولمقاربة هذه الإشكالية، تم اعتماد مقاربة وصفية تحليلية، بالاستناد إلى تحليل عدد من الدراسات والأبحاث والتقارير ذات الصلة بالهجرة والواحات ومغاربة العالم، مع التركيز على عدد من المجالات الواحية بالجنوب الشرقي المغربي، خاصة فجيح وتودغى ودرعة وتافيلالت. كما تم الاستناد إلى مجموعة من المقاربات النظرية المفسرة للهجرة، بما يتيح فهم العوامل المرتبطة بتشكيل الهجرة الواحاتية من جهة، وتحليل التحولات التي تطرأ على علاقة المهاجر بمجاله الأصلي وإعادة تشكيل الانتماء إليه من جهة أخرى.

وتناول المقال مجموعة من المحاور، شملت الإطار المفاهيمي، وخصوصيات المجال الواحي، وأهم المقاربات النظرية المفسرة للهجرة، ثم العوامل المساهمة في تشكل الهجرة الواحاتية، قبل الانتقال إلى تحليل إعادة تشكيل انتماء مغاربة العالم إلى مجالهم الواحية، والوقوف على أبرز تجليات هذا الانتماء في سياق عابر للحدود.

أولاً: الإطار المفاهيمي:

1- مفهوم الهجرة الواحاتية

أ- مفهوم الهجرة:

يعود أصل مصطلح الهجرة إلى الكلمة اللاتينية *migratio* التي تحيل إلى معنى الانتقال من مكان إلى آخر، وهي مشتقة من *migrare*. بمعنى الذهاب من مكان وتغيير محل الإقامة¹. واصطلاحاً، "تعرف الظاهرة المهاجرة الدولية باعتبارها حركية طوعية أو قسرية للسكان من بلد إلى آخر"².

كما تعرف الهجرة، حسب قاموس الأمم المتحدة، بأنها حركة للسكان من منطقة جغرافية إلى أخرى بغرض الإقامة، في حين يعرفها معجم المنظمة الدولية للهجرة باعتبارها انتقال شخص أو مجموعة من الأشخاص، سواء بين الدول أو بين منطقتين داخل أراضي الدولة نفسها³. وتتفق هذه التعريفات في اعتبار الهجرة انتقالاً للأفراد أو الجماعات من مجال إقامة إلى آخر، مع اختلافها في نطاق هذا الانتقال وطبيعته.

ولا تقتصر الهجرة على مجرد انتقال مكاني بين مجالين، بل تمثل تحولا في الموقع الاجتماعي والمجالي للفرد، بما يصاحبه من إعادة تنظيم لعلاقاته الاجتماعية والاقتصادية وصلاته بمجال الأصل ومجال الاستقرار. ومن ثم، فإن مقاربتها تقتضي تجاوز بعدها الديمغرافي إلى استحضار الأبعاد الاجتماعية والمجالية التي تتشكل في سياقها.

ب- مفهوم الواحة :

يرجع أصل مصطلح الواحة إلى الكلمة المصرية القديمة "ووت"، التي انتقلت إلى القبطية بصيغة *Ouahe*، قبل أن تتطور لدى الإغريق بلفظ "واحة". وتشير إلى منطقة يعتمد وجودها على المياه الجوفية المتأنية من الينابيع ومن المناطق الجبلية أو الوديان⁴. كما تعد مجالا لاستقرار السكان، يقوم على تفاعل عناصر طبيعية وبشرية، وعلى تنظيم اجتماعي تقليدي يرتبط بعادات السكان وأنماط عيشهم⁵.

ومن ثم، لا يمكن اختزال الواحة في بعدها الطبيعي المرتبط بالماء والزراعة، بل تمثل مجالا اجتماعيا تتداخل داخله الموارد الطبيعية مع أشكال التنظيم الاجتماعي والعلاقات الأسرية والأعراف والممارسات الاقتصادية والثقافية. وهو ما يجعل المجال الواحي إطارا تتشكل داخله علاقات اجتماعية وروابط بالمكان، بما تحمله من دلالات اجتماعية ورمزية بالنسبة إلى الأفراد والجماعات.

¹ Sylvie Mazzella, Sociologie des migrations, 4e éd. mise à jour, Paris, Presses Universitaires de France, 2025, p. 13.

² Ibid., p. 3.

³ فريدة السنون، إلهام كريم، محمد حزوي، الجاذبية المحلية لطنجة الكبرى بين تحديات الهجرة وآفاق التنمية المستدامة، ضمن: الهجرة الدولية والديناميات السوسيوإقليمية: السياقات - التجليات - الإفرازات، إشراف إبراهيم الأنصاري وعبد القادر التايري، برلين، المركز الديمقراطي العربي، 2021، ص. 189.

⁴ عبد الرحمان العساوي، المجال الواحي والموارد المائي: الخطارات، مجلة المعرفة، العدد الرابع عشر، 2024، ص. 856.

⁵ نفسه، ص. 855.

ج- مفهوم الهجرة الواحاتية:

انطلاقاً من تداخل مفهوم الهجرة والواحة، يمكن تعريف الهجرة الواحاتية باعتبارها شكلاً من أشكال التنقل من المجالات الواحية نحو مجالات أخرى داخل المغرب أو خارجه، في سياق يرتبط بخصوصيات هذه المجالات وما تعرفه من تحولات وإكراهات بيئية واقتصادية واجتماعية.

وفي هذا المقال، يقصد إجرائياً بالهجرة الواحاتية انتقال الأفراد المنحدرين من المجالات الواحية نحو بلدان أخرى خارج المغرب، تحت تأثير عوامل ترتبط بمجالات الأصل وأخرى ببلدان الاستقبال.

2- مفهوم الانتماء المحلي:

أ- مفهوم المجال التراي:

لا يقتصر فهم المجال التراي على بعده المؤسساتي المرتبط بالتقسيم الإداري، بل يقوم أيضاً على علاقة الفرد بالمجال، من خلال تمثالاته له وأشكال تملكه. فطبيعة الروابط التي يقيمها الأفراد مع مجالهم تعكس درجة شعورهم بالانتماء إليها¹.

ومن هنا يمكن النظر إلى المجال التراي باعتباره أكثر من مجرد إطار جغرافي أو إداري، إذ تتحدد دلالاته أيضاً من خلال العلاقة التي يقيمها الأفراد معه وما يمنحونه له من معان ضمن تجاربهم ومساراتهم المختلفة، وهو ما يشكل أساساً لفهم شعورهم بالانتماء إليه.

ب- مفهوم الانتماء المحلي:

يعد الانتماء المحلي أحد مكونات بناء الهوية إلى جانب انتماءات اجتماعية وعائلية ومهنية، وتختلف مكانته باختلاف المسارات الفردية والسياقات ومراحل الحياة، بما يجعل بعض الانتماءات أكثر بروزاً من غيرها². كما يعتبر مستوى متقدماً من العلاقة بين الفرد والمجال، يأتي بعد التعلق بالمكان وتملكه، ويتميز بتحول المجال إلى موضوع استثمار حقيقي وإلى مجال مرجعي بالنسبة إلى الفرد³.

يمكن فهم الانتماء المحلي باعتباره رابطة تتحدد قوتها ومكانتها بحسب موقع المجال في مسار الفرد وبناء هويته، وهذه الرابطة لا تظل ثابتة بالضرورة، بل تتأثر بسياقات متعددة. كما يكتسب هذا المجال موقعاً خاصاً ضمن اهتمامات الفرد، بما يعكس الأهمية التي يحتلها ضمن انتماءاته ومرجعياته المختلفة.

¹ Syrine Ben Slymen, Sentiment d'appartenance et intelligence territoriale : une application au contexte tunisien, thèse de doctorat en cotutelle, sciences de l'information et de la communication, Université Nice Sophia Antipolis et Université de Tunis El Manar, 2014, p. 22.

² France Guérin-Pace, Sentiment d'appartenance et territoires identitaires, L'Espace géographique, tome 35, n° 4, 2006, p. 299.

³ François Guillet, compte rendu de France Guérin-Pace et Éléna Filippova, Ces lieux qui nous habitent. Identité des territoires, territoires des identités, Paris, INED-Éditions de l'Aube, 2008, 277 p., Revue historique, n° 650, 2009, p. 467.

ويقصد إجرائيا بإعادة تشكيل الانتماء المحلي تغيير أشكال ارتباط المهاجر بمجال الأصل بعد الهجرة، بحيث لم تعد ترتبط فقط بالإقامة والحضور المباشرين، وإنما تتجدد من خلال الممارسات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، إلى جانب الروابط الرمزية والوجدانية.

3- مفهوم مغاربة العالم:

عرف المجلس الاقتصادي والاجتماعي والبيئي مغاربة العالم بأنهم كل شخص يحمل الجنسية المغربية أو ينحدر من أصول أبوية مغربية، ويقيم بالخارج منذ أكثر من سنة. ويشمل هذا المفهوم أيضا الأجيال المولودة بالخارج، والتي تحمل في الغالب جنسية بلد الميلاد¹.

وفي إطار هذا المقال، يقصد بمغاربة العالم في سياق الهجرة الواحاتية، الأفراد المنحدرون من المجالات الواحية المغربية والمقيمون بالخارج، سواء تعلق الأمر بالمهاجرين أنفسهم أو بالأجيال المولودة ببلدان الإقامة.

ثانيا: خصوصيات المجال الواحي وعوامل الهجرة

يرتبط فهم الهجرة الواحاتية بخصوصيات المجال الذي تنشأ داخله، وبمجموعة من العوامل المتداخلة التي تسهم في تشكيلها واستمرارها. فالهجرة لا تنفصل عن التحولات التي يعرفها المجال الواحي، سواء على المستوى البيئي أو الاقتصادي أو الاجتماعي، ولا عن الكيفية التي تنعكس بها هذه التحولات على شروط العيش والاستقرار داخله. لذلك يقتضي تناول هذا المحور الوقوف أولا على بعض خصائص المجال الواحي، قبل الانتقال إلى أبرز العوامل المساهمة في هذه الهجرة.

1- خصوصيات المجال الواحي:

تعد الواحات المغربية أنساقا مجالية ذات خصوصية سوسيو-إيكولوجية متميزة، وتمتد على مساحة تقارب ثلث التراب الوطني، ولم تكن مجرد فضاءات للاستقرار البشري، بل مجالات سوسيوثقافية أسهمت في تشكيل الهوية المغربية من خلال دورها كفضاءات للتبادل الحضاري². ومن ثم، فالواحات لا تكتسب أهميتها من خصائصها الطبيعية فقط، بل كذلك من الأدوار الاجتماعية والتاريخية التي اضطلعت بها، وهو ما يفسر مكانتها ضمن البنية المحلية للمغرب. كما أن هذا الامتداد التاريخي والاجتماعي يمنح المجال الواحي دلالة تتجاوز كونه فضاء للإقامة والإنتاج، ليصبح مجالا حاملا لذاكرة جماعية.

¹ Conseil Économique, Social et Environnemental (CESE), Renforcer le lien intergénérationnel entre les Marocain(es) du Monde et le Maroc : les chances et les défis, 2022, p. 12.

² Institut Royal des Études Stratégiques (IRES), Rapport de synthèse des travaux de la journée de réflexion prospective sur la gestion durable des oasis : complexité et défis – État actuel des oasis marocaines et perspectives de leur évolution dans le contexte du changement climatique, avril 2025, p. 5.

كما تتميز هذه المجالات بوظائف بيئية واقتصادية واجتماعية وثقافية، إلى جانب تنوعها البيولوجي ودورها في الحد من زحف الصحراء¹. فالواحات منظومة مجالية متكاملة تقوم على تفاعل الخصائص البيئية مع المكونات البشرية والاجتماعية والاقتصادية، بحيث لا تعمل هذه العناصر بشكل منفصل، بل ضمن علاقات متبادلة تمنح المجال توازنه وخصوصيته. ويجعل هذا الترابط استمرارية الواحة مرتبطة بقدرتها على الحفاظ على التوازن بين مواردها الطبيعية، وأنماط تنظيمها، والأنشطة التي يمارسها الواحيون داخلها، إذ قد ينعكس اختلال أحد هذه المكونات على باقي عناصر المنظومة الواحية.

يشكل الماء عنصرا أساسيا في استمرارية هذه المجالات، وقد طور السكان الواحيون تقنيات محلية لتعبئته واستغلاله، من بينها الخطارات والأغور والسدود المؤقتة، واستعمال مياه الينابيع والفيضانات. كما تعد الزراعة وتربية الماشية من الأنشطة الأساسية للسكان الواحيين؛ إذ تشمل التربية المستقرة تربية الأغنام والأبقار، بينما يمارس الرحل في محيط الواحات تربية الأغنام والماعز والإبل².

كما يعد نخيل التمر في المجالات الواحية المغربية عنصرا أساسيا في النظام البيئي، لما يكتسبه من أهمية اقتصادية وبيئية، إذ يسهم في تهيئة ظروف أكثر ملاءمة للزراعات الواحية من خلال توفير الظل والحماية من الرياح الحارة والجافة، كما يساهم في الحد من التصحر³.

وتكشف هذه العناصر أن المجال الواحي يقوم على مقومات طبيعية واقتصادية مترابطة، في مقدمتها الموارد المائية والنخيل والأنشطة الزراعية والرعية. فاستمرار هذه الأنشطة يرتبط بتوفر الماء وبقدرة السكان على تدبير الموارد المتاحة والتكيف مع شروط المجال، في حين يساهم النخيل في توفير شروط ملائمة للزراعة وحماية الواحة من بعض التأثيرات المناخية. ومن ثم، تشكل داخل الواحة علاقة وثيقة بين الموارد الطبيعية والأنشطة التي يعتمد عليها السكان في حياتهم اليومية.

كما تتجلى خصوصية المجال الواحي في أنماط التنظيم المحلي والثقافي والاجتماعي التي تؤثر الحياة داخله. فعلى المستوى المحلي، يعكس تنظيم "القصور" نمودجا عمرانيا متكاملًا يجمع بين الوظيفة السكنية والإنتاجية، ويجسد قدرة المجتمع الواحي على التكيف مع الإكراهات البيئية وتدبير موارده. كما تستند الواحات إلى رصيد من التراث غير المادي، يتجسد في المعارف والخبرات المحلية المتوارثة، التي تشكل ذاكرة جماعية وتساهم في الحفاظ على الخصوصية الثقافية للواحات وهويتها. أما على

¹ Food and Agriculture Organization of the United Nations (FAO), Terminal evaluation of the project "Revitalizing oasis agroecosystems through a sustainable, integrated and landscape approach in the Drâa Tafilalet region", 2025, p. 1.

² Mohamed Fatni, L'homme, base de la vie durable dans les oasis, Actes du Symposium International sur le Développement Durable des Systèmes Oasiens, sous la direction de Bouchaib Boulanouar, Chafik Kradi, Erfoud, Maroc, INRA, 2005, pp. 190-191.

³ Souhail Channaoui, Safae Aqil, Achraf Hdoudouch, Adil Essarioui, Reda Meziani, Phenotypic diversity of date palm male clones (Phoenix dactylifera L.) in Morocco: a selection study, Discover Plants, vol. 2, 2025, p. 1.

مستوى الحكامة المحلية، فتضطلع "الجماعة" بدور في تدبير الموارد المشتركة، وتنظيم العلاقات الاجتماعية وتسوية النزاعات، بما يساهم في استمرارية أنماط التنظيم الجماعي¹.

إن المجال الواحي لا يقوم فقط على توافر الموارد الطبيعية والأنشطة الاقتصادية المحلية، وإنما يستند أيضا إلى منظومة من التنظيمات المحلية والاجتماعية والثقافية التي توطد الحياة داخله. فالتصور، والمعارف والخبرات المتوارثة، إلى جانب الأدوار التي تضطلع بها الجماعة، تكشف عن أشكال متعددة لتنظيم المجال واستمرار الحياة الاجتماعية داخل الواحات. وترتبط ممارسة الجماعة لأدوارها بجملة من القواعد والأعراف المحلية التي تشكل بدورها أحد مكونات هذا التنظيم.

تعد الأعراف من المداخل المهمة لفهم الحياة الاجتماعية في المجال الواحي، باعتبارها إطارا ينظم العلاقات بين السكان في سياق استغلال المجال. كما ترتبط بأشكال التعاون والتزاع الناتجة عن الاستغلال المشترك لبعض الأراضي وتقسيم حصص السقي². وتبرز هذه الأعراف أن تنظيم الحياة داخل الواحة لا يقوم على المؤسسات المحلية وحدها، بل يستند أيضا إلى قواعد اجتماعية متوارثة توطد جانبا من العلاقات بين السكان وتدير بعض الموارد المشتركة. وإلى جانب هذا المستوى الجماعي من التنظيم، تمثل الأسرة مستوى أكثر قربا من الحياة اليومية للأفراد، بما تضطلع به من أدوار داخل المجتمع الواحي.

تحتل الأسرة الممتدة مكانة مهمة داخل التنظيم الاجتماعي للمجتمع الواحي، بالنظر إلى دورها في نقل العادات والتقاليد عبر الأجيال، وفي تأطير جانب من العلاقات الاجتماعية من خلال منظومة من القواعد والقيم، بما يساهم في استمرارية الروابط الاجتماعية داخل الواحة³.

ومن خلال هذه الخصائص، يتضح أن المجال الواحي لا يقوم على عنصر واحد، وإنما يتشكل من تفاعل مستمر بين مكوناته البيئية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، بما يمنحه خصوصية محلية وتنظيمية متميزة. غير أن هذا المجال، رغم ما يتوفر عليه من مقومات وموارد، يواجه جملة من الإكراهات التي تؤثر في شروط استمراره وفي قدرة السكان على الاستقرار داخله.

ومن بين هذه الإكراهات محدودية الموارد المائية، وانخفاض الإنتاجية الزراعية، وتراجع بعض القطاعات التقليدية، فضلا عن صعوبات الولوج إلى الأسواق. وتنعكس هذه العوامل على الاقتصاد المحلي، في ظل محدودية فرص الشغل وضعف التنوع الاقتصادي، وهو ما يساهم في دفع جزء من السكان، ولا سيما الشباب، إلى الهجرة خارج المجال الواحي⁴.

ولا تقتصر العوامل المساهمة في الهجرة الواحاتية على هذه الإكراهات وحدها، بل تتداخل معها محددات بيئية واقتصادية واجتماعية أخرى ترتبط بمجال الأصل والاستقبال، وهو ما يستدعي الوقوف على أهم هذه العوامل لفهم السياقات التي أسهمت في تشكل الهجرة الواحاتية واستمرارها.

¹ Institut Royal des Études Stratégiques (IRES), op. cit., p. 16.

² زكرياء نصر الدين، القانون العرفي بواحات الجنوب الشرقي المغربي: السياق وآفاق التوظيف - حالة إقليم تنغير، مجلة الدراسات الإفريقية وحوض النيل، المجلد الرابع، العدد الثالث عشر، المركز الديمقراطي العربي، برلين، 2021، ص. 151.

³ عبد الحكيم خريصي، مراسم طقوس الزواج لدى البنيات الاجتماعية بتافيلالت: دراسة سوسيو أنثروبولوجية في البنية الثقافية لقبائل بني محمد، مجلة العلوم الاجتماعية، المركز الديمقراطي العربي، المجلد 9، العدد 36، 2025، ص. 91.

⁴ Institut Royal des Études Stratégiques (IRES), op. cit., p. 22.

2- عوامل الهجرة الواحاتية:

تعتبر الهجرة من الظواهر الاجتماعية المعقدة التي تتداخل في تفسيرها عوامل اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية، مما يصعب اختزالها في عامل واحد. ولدراستها يجب ربطها بتحولات أوسع مرتبطة بالعملة والتنمية والتغير الاجتماعي، مع استحضار السياقات والعوامل المنتجة لها داخل مجتمعات الأصل، وآثارها في مجتمعات الأصل والاستقبال¹.

تكتسي هذه المقاربة أهمية خاصة في دراسة الهجرة الواحاتية، بالنظر إلى ارتباطها بخصوصيات المجال الواحي من جهة، وبما توفره مجالات الاستقبال من شروط وإمكانات من جهة أخرى، إلى جانب عوامل أخرى تتداخل في تشكيل هذه الهجرة. وقبل الوقوف على هذه العوامل، يقتضي الأمر استحضار بعض المقاربات النظرية المفسرة للهجرة، بما يساعد على فهم تعدد محدداتها وتداخلها.

أ- المقاربات النظرية المفسرة للهجرة:

تعددت المقاربات النظرية المفسرة للهجرة تبعا لاختلاف العوامل التي ركزت عليها، بين أبعاد اقتصادية واجتماعية وثقافية وسياسية وبيئية، إلى جانب عوامل أخرى. كما اختلفت في مستوى التحليل الذي اعتمدته، بين ما يركز على الفرد، وما ينطلق من الأسرة والشبكات الاجتماعية، وما يربط الهجرة بتحولات بنوية أوسع، إلى جانب مقاربات أخرى تفسرها من زوايا ومستويات مختلفة. ويعكس هذا التنوع تعدد المداخل التي يمكن من خلالها فهم الظاهرة المهاجرة وتعدد العوامل المتدخلة في تشكيلها.

ينطلق Lee في تفسيره للهجرة من تفاعل عوامل مرتبطة بمحالي الأصل والاستقبال، إلى جانب العوائق الوسيطة والعوامل الشخصية. وتكتسب هذه العوامل دلالات إيجابية أو سلبية أو محايدة بحسب إدراك الأفراد ووضعتهم، بحيث قد يمثل العامل نفسه عنصر جذب لدى بعضهم وعنصر دفع لدى آخرين. لذلك، لا يرتبط قرار الهجرة بالظروف الموضوعية وحدها، بل كذلك بكيفية إدراك الأفراد لهذه العوامل واختلاف استجاباتهم لها².

انطلاقا من هذا التصور، يمكن التمييز بين عوامل دفع ترتبط بمجالات الأصل، كالبطالة وقلة فرص الشغل وتدهور الظروف المعيشية والإكراهات البيئية والمناخية، وعوامل جذب ترتبط بما توفره مجالات الاستقبال من فرص مختلفة وتحسن في الدخل وإمكانات للارتقاء الاجتماعي. غير أن أثر هذه العوامل يختلف باختلاف أوضاع الأفراد وإدراكهم لها.

إذا كان Lee قد أبرز دور عوامل الدفع والجذب، إلى جانب اختلاف إدراك الأفراد لها وقدرتهم على التعامل مع العوائق المرتبطة بالهجرة، فإن المقاربة النيولاسيكية ركزت بصورة أكبر على البعد الاقتصادي، من خلال الفوارق في الأجور وفرص الشغل بين مجالات الأصل والاستقبال.

¹ Stephen Castles, Hein de Haas, Mark J. Miller, The Age of Migration: International Population Movements in the Modern World, 5e édition, Basingstoke, Palgrave Macmillan, 2014, p. 26.

² Everett S. Lee, A Theory of Migration, Demography, vol. 3, n° 1, 1966, p. 50.

في إطار النظرية النيوكلاسيكية، يفسر Harris-Todaro الهجرة القروية نحو المجالات الحضرية بالاستناد إلى الحوافز الاقتصادية وفرص الشغل التي توفرها المدن¹، إلى جانب ارتفاع الأجور في هذه المدن، بما يدفع العمال القرويين إلى الانتقال نحوها². ورغم أن هذا النموذج انطلق أساساً من تفسير الهجرة القروية نحو المدن، فإن منطقته التحليلي القائم على الفوارق في فرص الشغل والدخل يمكن الاستفادة منه في فهم بعض دوافع الهجرة الدولية، خاصة في ظل التفاوت بين ما توفره مجالات الأصل ومجالات المستقبل.

لا تقتصر الهجرة، ضمن المقاربة النيوكلاسيكية، على الاستجابة للفوارق في الأجور وفرص الشغل، بل تحلل أيضاً باعتبارها شكلاً من أشكال الاستثمار في الرأسمال البشري، كما يبين ذلك Sjaastad، الذي ينظر إلى الهجرة باعتبارها استثماراً يسهم في رفع إنتاجية الأفراد. كما يربط تحليل الهجرة بالموازنة بين تكاليفها وعوائدها المتوقعة، انطلاقاً من العائد المنتظر منها³.

تبرز هذه التصورات أهمية العامل الاقتصادي في تفسير الهجرة، سواء من خلال الفوارق في فرص الشغل والدخل بين مجالات الأصل والمستقبل، أو من خلال الموازنة بين التكاليف والعوائد المتوقعة من الهجرة. وتكشف بذلك عن حضور الاعتبارات الاقتصادية في توجيه القرار الهجروي وفي تقدير الأفراد للفرص المتاحة أمامهم. غير أن هذا التفسير، رغم أهميته، لا يكفي للإحاطة بمختلف الأبعاد الاجتماعية والبنوية التي تؤثر في الهجرة، وهو ما فتح المجال أمام مقاربات أخرى، من بينها النظرية البنوية التاريخية.

انتقد البنويون التاريخيون النظرية النيوكلاسيكية لكونها تختزل الهجرة في قرار فردي عقلائي، متجاهلة الإكراهات البنوية المؤطرة لاختيارات الأفراد. ويرون أن الهجرة تمثل استجابة لعمليات إدماج غير متكافئة للمجالات الهامشية داخل النظام الرأسمالي العالمي، بما يؤدي إلى إضعاف البنيات الاقتصادية التقليدية وتقويض سبل العيش، خاصة في الوسط القروي، ودفع الفئات المتضررة نحو أسواق العمل الحضرية أو الدولية لتشكل جزءاً من البروليتاريا العاملة المنخفضة الأجر⁴.

وإلى جانب النقد الذي وجهته المقاربة البنوية للتصور النيوكلاسيكي بسبب تركيزه على الفرد وإغفاله للإكراهات البنوية المحيطة به، قدمت نظرية الاقتصاد الجديد لهجرة العمل (NELM) بدورها مراجعة لهذا التصور، ولكن من زاوية مختلفة، من خلال نقل مستوى التحليل من الفرد إلى الأسرة باعتبارها وحدة أساسية في فهم القرار الهجروي.

يبرز Taylor، في إطار نظرية نظرية الاقتصاد الجديد لهجرة العمل، أن معظم أبحاث الهجرة اقترنت في تفسير الظاهرة عندما تعاملت مع المهاجر بمعزل عن سياقه الأسري والمجتمعي. وتدعو هذه النظرية إلى اعتماد مقاربة شمولية تقوم على تحليل

¹ Sarbajit Chaudhuri, Ujjaini Mukhopadhyay, The Harris-Todaro Migration Model and Introduction of the Informal Sector, Revisiting the Informal Sector: A General Equilibrium Approach, New York, Springer, 2010, p. 33.

² Ibid., p. 36.

³ Larry A. Sjaastad, The Costs and Returns of Human Migration, Journal of Political Economy, vol. 70, n° 5, part 2, 1962, p. 83.

⁴ Hein Gysbert de Haas, Migration and Development in Southern Morocco: The Disparate Socio-Economic Impacts of Out-Migration on the Todgha Oasis Valley, PhD Dissertation, Katholieke Universiteit Nijmegen, 2003, p. 22.

الهجرة في إطار الاقتصاد الأسري، مع استحضار السياق المحلي والمجتمعي لفهم آثار تحويلات المهاجرين في نفقات الأسر، وعلاقتها بمحددات الهجرة¹.

وعليه، لا تختزل الهجرة في بعدها الاقتصادي الفردي، بل تتشكل أيضا في إطار استراتيجيات أسرية ترتبط بسياقات اجتماعية ومجالية أوسع، بما يجعل الأسرة مستوى أساسيا لفهم كيفية اتخاذ القرار الهجروي والآثار التي تنتج عنه. غير أن تفسير الهجرة لا يتوقف عند هذا المستوى، إذ تبرز مقاربات أخرى أهمية الروابط التي ينشئها المهاجرون ويحافظون عليها بين مجتمعات الأصل والاستقبال، وهو ما تركز عليه نظريات شبكات الهجرة والعبر وطنية وأنظمة الهجرة.

تفسر نظرية شبكات الهجرة كيفية تشكل الروابط الاجتماعية بين المهاجرين وأسرهم وأصدقائهم في بلدان الأصل، وكيف تتحول هذه الروابط إلى شبكات تساهم في تسهيل الهجرة من خلال تقليص تكاليفها الاقتصادية والاجتماعية والنفسية، بما يعزز احتمال استمرارها واتساعها مع مرور الوقت².

بينما ترى نظريات العبر وطنية أن العولمة وتطور وسائل النقل والاتصال عززا قدرة المهاجرين على الحفاظ على روابط بعيدة المدى مع مجتمعات الأصل، وسهلا التواصل معها وإرسال التحويلات والتنقل بين أماكن متباعدة، وبناء هويات متعددة، والعمل وممارسة الأنشطة التجارية والسياسية في أكثر من مكان³.

وإذا كانت نظريات شبكات الهجرة تركز على دور رأس المال الاجتماعي، وتتركز نظريات العبر وطنية على تشكل الهوية، فإن نظرية أنظمة الهجرة تنظر إلى الهجرة باعتبارها جزءا من منظومة أوسع من المبادلات التي تربط مجتمعات الأصل والاستقبال، ولا سيما تدفقات الأموال والسلع والأفكار. وتؤثر هذه المبادلات بدورها في السياقات التي تتشكل ضمنها الهجرة، بما يجعلها مرتبطة بتحويلات اجتماعية وتنموية أوسع⁴.

تكشف هذه المقاربات أن تفسير الهجرة لا يستند إلى مستوى واحد من التحليل، بل يقوم على عوامل الدفع والجذب ومحددات ترتبط بالأفراد، وأخرى بالأسرة والشبكات الاجتماعية، إلى جانب الشروط الاقتصادية والإكراهات البنوية والروابط بين المهاجرين ومجتمعات الأصل. ورغم إسهام كل مقاربة في تفسير جانب من الظاهرة، فإن أيًا منها لا يكفي منفردا للإحاطة بتعقدها، مما يقتضي تحليل الهجرة داخل سياقاتها الاجتماعية والمجالية، واستحضار تفاعل المستويات الفردية والأسرية والاقتصادية والبنوية، إلى جانب العلاقات الممتدة بين مجالات الأصل والاستقبال. وفي هذا الإطار، يكتسي تحليل الهجرة الواحاتية أهمية خاصة، بالنظر إلى خصوصيات المجال الواحي وتعدد العوامل التي تسهم في تشكل هذه الهجرة واستمرارها.

¹ J. Edward Taylor, The New Economics of Labour Migration and the Role of Remittances in the Migration Process, International Migration, vol. 37, n° 1, 1999, p. 64.

² Stephen Castles, Hein de Haas, Mark J. Miller, op. cit., pp. 39-40.

³ Ibid., p. 41.

⁴ Ibid., p. 43.

ب- عوامل الهجرة الواحاتية:

في المناطق الجافة، لا تعد الهجرة مجرد استجابة ظرفية للتغيرات البيئية، بل تمثل استراتيجية تاريخية للتكيف مع هذه التغيرات. كما أن تأثير التغيرات البيئية في موارد الأسر قد يدفعها إلى تنويع مصادر دخلها وتأمين سبل عيشها¹. وقد تكون الهجرة إحدى الوسائل التي تلجأ إليها الأسر لتحقيق ذلك، سواء من خلال البحث عن مصادر دخل بديلة أو تقليص الاعتماد على الموارد المحلية المتأثرة بالتقلبات البيئية. ومع ذلك، لا تقود هذه التحولات إلى الهجرة بصورة مباشرة أو متشابهة لدى جميع الأسر، إذ يتوقف ذلك على إمكاناتها الاقتصادية والاجتماعية، وقدرتها على تحمل تكاليف الانتقال، وما تتوفر عليه من موارد وشبكات تسهل الهجرة أو تحد منها.

تشكل الهجرة أحد المكونات البنيوية للديمقراطية في المجالات الواحية²، وترتبط بعوامل متداخلة تمس المجال وبنياته الاجتماعية والاقتصادية، من بينها التصحر والجفاف، والهشاشة الاجتماعية، والفقر، والبطالة، والتهemis. وقد أسهمت هذه التحولات في إضعاف شروط الاستقرار داخل المجال الواحي، ودفع جزء من السكان إلى البحث عن فرص عيش واستقرار في مجالات أخرى خارج الواحات³.

إن الهجرة في هذه المجالات لا ترتبط بعامل واحد، بل تتشكل في سياق تتفاعل فيه عوامل الدفع والجذب مع محددات أخرى، تختلف درجة تأثيرها بحسب الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والبيئية للسكان. لذلك، فإن فهم الهجرة الواحاتية يقتضي تجاوز التفسير القائم على عامل منفرد، والنظر إلى الكيفية التي تتداخل بها هذه العوامل داخل المجال الواحي. وتظهر هذه التفاعلات بصورة أوضح في عدد من الدراسات الميدانية المنجزة بواحات الجنوب الشرقي المغربي، التي تتيح الوقوف على العوامل المساهمة في الهجرة وكيفية تداخلها.

تشير نتائج دراسة منجزة بواحات تافيلالت إلى أن الهجرة ترتبط بتفاعل عوامل بيئية واقتصادية واجتماعية وشخصية. فقد أسهم تكرار الجفاف، وندرة المياه، خاصة الجوفية، وجفاف الخطارات، وتراجع النشاط الزراعي في دفع السكان إلى الهجرة. كما ارتبطت بفقدان الشباب للمعارف الزراعية التقليدية، والرغبة في اكتشاف فضاءات جديدة والبحث عن أنماط عيش مختلفة واكتساب خبرات جديدة، فضلا عن الابتعاد عن النزاعات العائلية⁴. ويلاحظ هنا بروز العوامل البيئية بصورة أوضح، بالنظر إلى تعدد مظاهرها وارتباطها بتدهور النشاط الزراعي، دون أن يعني ذلك أنها العامل الواحد المؤدي إلى الهجرة.

¹ Foresight, Migration and Global Environmental Change: Future Challenges and Opportunities, Final Project Report, The Government Office for Science, London, 2011, p. 71.

² Gwenaëlle Janty, L'oasis de Figuig, une bulle patrimoniale en interaction avec le monde, Actes du colloque international Les oasis dans la mondialisation : ruptures et continuités, sous la direction d'Anaïs Marshall et al., Paris, 2014, p. 137.

³ عبد الحكيم خريصي، المجال والهجرة: من الاستقرار الاجتماعي نحو التروح الجماعي: دراسة سوسولوجية لواحة زيز الأسفل، مجلة الدراسات الإفريقية وحوض النيل، المجلد السادس، العدد الثامن والعشرون، المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية، برلين، ألمانيا، 2024، ص. 121.

⁴ Monique Mainguet, Frédéric Dumay, Lahcen Kabiri, Boualem Rémini, Prodrômes of Desertification in the Oasis of Tafilalet (Morocco) and Specific Local Solutions, in H. G. Brauch

وفي السياق نفسه، تكشف دراسة ميدانية بواحة فجيح أن الهجرة تتزايد خلال فترات الجفاف بفعل تدهور الأوضاع المعيشية. كما ترتبط الهجرة الخارجية بمشاشة الاقتصاد المحلي ومحدودية فرص الشغل، خاصة في صفوف الشباب وحاملي الشهادات، بما يدفعهم إلى البحث عن فرص أفضل خارج الواحة، إلى جانب تأثير بعض العوامل الجغرافية والتاريخية¹.

وتبرز هذه المعطيات أيضا أثر العوامل البيئية في قرار الهجرة، لكنها لا تنفصل عن السياق الاقتصادي والاجتماعي، إذ يمكن أن يؤدي الجفاف وتراجع الموارد إلى ضغوط معيشية واقتصادية تعزز التوجه نحو الهجرة، وهو ما يكشف عن ترابط هذه العوامل داخل المجال الواحي.

أما في واحات درعة الوسطى، فهي بدورها تعرف صعوبات مرتبطة بعجز البنيات الإنتاجية المحلية عن تحقيق التنمية وتوفير شروط العيش للسكان، وهو ما يدفع فئات منهم إلى الهجرة خاصة الشباب الذين يرونها وسيلة للبحث عن حياة أفضل².

وفي هذا المجال، أظهرت دراسة ميدانية بواحي كتاوة ومحاميد أن 70% من المستجوبين اعتبروا تدهور الأوضاع البيئية عاملا مؤثرا في الهجرة. وقد ارتبط ذلك بالتحويلات التي أعقبت بناء سد المنصور الذهبي وموجات الجفاف خلال الثمانينيات، غير أن هذه التحويلات لم تنشئ الهجرة بل أسهمت في تقوية تقليد هجري سابق³. وهنا أيضا تبرز أهمية العوامل البيئية بدرجة أكبر في تفسير الهجرة، دون أن يلغى ذلك حضور عوامل أخرى مرافقة.

غير أن قرار الهجرة من هذا المجال أو البقاء لا تحدده الظروف البيئية وحدها، بل يتأثر أيضا باختلاف أوضاع السكان واستجاباتهم؛ إذ قد يختار بعضهم البقاء رغم هشاشة ظروفه، في حين يقرر آخرون الهجرة رغم توفرهم على شروط معيشية أفضل⁴. كما تتداخل مع العوامل البيئية في الواحات عوامل اجتماعية واقتصادية ومجالية، من بينها التهميش والعزلة وضعف التجهيزات والمشاشة الاجتماعية والاقتصادية، فضلا عن تغير تطلعات السكان بفعل الاحتكاك بالمهاجرين ووسائل الإعلام⁵.

إن عوامل الهجرة متعددة، رغم بروز العوامل البيئية في عدد من الحالات المدروسة، غير أن فهمها يقتضي تجاوز البحث في هذه العوامل وحدها إلى النظر أيضا في الشروط التي تجعل الهجرة ممكنة أو تحد منها، بما في ذلك إمكانات الأسر ومواردها وقدرتها على الاستجابة للتحويلات التي يعرفها المجال الواحي. كما تكشف الحالات السابقة أن الظروف المتشابهة لا تنتج دائما الاستجابة نفسها، إذ قد تؤدي إلى الهجرة لدى بعض السكان، بينما تدفع آخرين إلى البقاء والتكيف بوسائل مختلفة. وهو ما

et al. (eds.), *Coping with Global Environmental Change, Disasters and Security: Threats, Challenges, Vulnerabilities and Risks*, Springer-Verlag Berlin Heidelberg, 2011, pp. 918-919.

¹ نور الدين بوعبيد، عبد الخالق غازي، الإفراغ السكاني: المظاهر والأسباب: نموذج واحة مدينة فجيح، (الحدود المغربية الجنوبية)، مجلة العلوم الإنسانية والطبيعية، المجلد 2، العدد 6، يونيو 2021، ص. 983.

² سعيد آيت عبد الواحد، الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية والبيئية لدينامية الهجرة بواحات درعة الوسطى جنوب المغرب، مجلة الدراسات الأفريقية وحوض النيل، العدد 13، 2021، ص. 27.

³ Mohamed Aït Hamza, B. El Faskaoui, *Les oasis du Drâa au Maroc : rupture des équilibres environnementaux et stratégies migratoires*, Hommes & migrations, n° 1284, 2010, p. 63.

⁴ Ibid., p. 68.

⁵ Ibid., p. 66.

يجعل دراسة الهجرة مرتبطة ليس فقط بوجود عوامل الدفع، بل أيضا بدرجة توفر الموارد والفرص والشبكات التي تسمح بتحويل الرغبة في الهجرة إلى انتقال فعلي.

وفي إطار تعدد عوامل الهجرة ودوافعها، تكشف نتائج إحدى الدراسات الميدانية المنجزة بوادي تودغي أن تطور الهجرة ارتبط بتراجع الأنظمة الاقتصادية التقليدية، وتفكك شبكات التجارة القديمة، وإضعاف أنماط العيش الرعوية، إلى جانب اتساع فرص العمل المأجور خارجه. كما أسهم تطور وسائل النقل والأنظمة البنكية في توسيع إمكانات الهجرة، في حين أدى انتشار التعليم ووسائل الإعلام والاحتكاك بالمهاجرين إلى توسيع تطلعات السكان وتعزيز استعدادهم للهجرة¹.

وفي الدراسة نفسها، يرى Hein de Haas أن الهجرة تفهم انطلاقا من تفاعل قدرات الأفراد على الانتقال، وتطلعاتهم المحددة اجتماعيا وثقافيا، والإطار المؤسسي الذي ييسر الهجرة أو يقيدّها. وقد أسهمت التحولات الاقتصادية والاجتماعية والمجالية وتزايد الانفتاح على الخارج في توسيع إمكانات الهجرة وتعزيز التطلع إليها لدى سكان وادي تودغي، كما ترتبط القدرة الفعلية على الهجرة بالولوج إلى الموارد المادية والبشرية، والشبكات وسياسات الهجرة ووضعية الشغل في مجالي الانطلاق والوصول. ومن ثم، يظل تفسير الهجرة من خلال ثنائية الطرد والجذب قاصرا، لأنه لا يستحضر تفاوت قدرات الأفراد ولا يفسر قدرة المجال نفسه على إرسال المهاجرين واستقبالهم في الوقت ذاته².

تكشف نتائج الدراسات المعروضة أن الهجرة الواحاتية تشكل في سياق تفاعل فيه عوامل بيئية واقتصادية واجتماعية ومجالية، إلى جانب تفاوت أوضاع الأفراد وقدراتهم وتطلعاتهم. وتتقاطع هذه النتائج مع عدد من النظريات المفسرة للهجرة؛ إذ تبرز مقارنة Lee أن عوامل الدفع والجذب لا تؤدي بصورة آلية إلى الهجرة، وهو ما يظهر في اختلاف استجابات السكان الواحيين للظروف نفسها، إذ يختار بعضهم الهجرة، في حين يفضل آخرون البقاء والتكيف داخل المجال. كما تظهر المحددات الاقتصادية التي ركزت عليها المقاربة النيوكلاسيكية محدودية فرص الشغل وانخفاض مستويات الدخل داخل بعض المجالات الواحية، مقابل اتساع الفرص خارجها. وتبرز نظرية الاقتصاد الجديد للهجرة العمل من خلال دور الأسرة الواحية في اتخاذ القرار الهجروي، وتنوع مصادر دخلها وتقليل المخاطر، إلى جانب ما تتيحه مواردها من قدرة على تحمل تكاليف الهجرة. كما يتجلى دور شبكات الهجرة في ما يوفره المهاجرون السابقون من روابط وموارد ومعلومات تسهل انتقال مهاجرين آخرين واستمرار التدفقات الهجرية. ومن جهة أخرى، تكشف التحولات التي مست الأنظمة الاقتصادية التقليدية وشبكات المبادلات وأنماط العيش، وما رافقها من اندماج في الدولة والاقتصاد الرأسمالي، عن أهمية المقاربة البنوية التاريخية في تفسير جانب من الهجرة الواحاتية.

غير أن تحليل الهجرة الواحاتية لا يقتصر على تفسير دوافعها وشروط تشكلها فقط، بل يمتد إلى ما تحدّثه من تحولات في علاقة مغاربة العالم بمجالاتهم الواحية الأصلية. فاستمرار الارتباط بهذه المجالات، رغم الاستقرار خارجها، قد يتخذ أشكالا متعددة اقتصادية واجتماعية وثقافية، ويسهم في إعادة صياغة العلاقة بالمجال على نحو يتجاوز الإقامة المباشرة داخله. ومن ثم، يقتضي فهم الهجرة الواحاتية أيضا تحليل ما يترتب عنها من إعادة تشكيل للانتماء إلى هذه المجالات في سياق الهجرة الدولية.

¹ Hein Gysbert de Haas, op. cit., p. 373.

² Hein Gysbert de Haas, op. cit., p. 210.

ثالثا: الهجرة وإعادة تشكيل الانتماء إلى المجال الواحي

لا يؤدي الاستقرار خارج المغرب إلى انقطاع علاقة مغاربة العالم بواحاتهم الأصلية، بل يعاد تشكيل هذه العلاقة في سياق يجمع بين الاستقرار في مجال الإقامة واستمرار الارتباط بمجال الأصل. ويظهر هذا الارتباط من خلال استمرار العلاقات الأسرية والاجتماعية، وما يحتفظ به المجال الواحي من دلالات رمزية وعاطفية في تمثيلات المهاجرين، بما يجعل الانتماء إلى الواحة قابلا للاستمرار رغم البعد الجغرافي والاستقرار خارجها.

ولا يظل هذا الارتباط في مستوى الشعور والانتماء فقط، بل يتجسد أيضا في مجموعة من الممارسات العابرة للحدود، من خلال الزيارات الدورية، والتحويلات والمساهمات الاقتصادية، والمشاركة الجموعية والاجتماعية، وغيرها من أشكال الحضور داخل المجال الأصلي. ومن ثم، يقتضي تحليل علاقة مغاربة العالم بواحاتهم الأصلية الوقوف، من جهة، على كيفية إعادة تشكيل انتمائهم إلى هذا المجال، ومن جهة أخرى، على التجليات والممارسات التي يعبر من خلالها هذا الانتماء عن نفسه.

1- إعادة تشكيل انتماء مغاربة العالم إلى مجاهم الواحي:

يفتح مفهوم الانتماء المجالي أفقا تحليليا لفهم علاقة الأفراد بالمجال، إذ يطرح سؤالاً: ماذا يعني أن يشعر الإنسان بأنه ينتمي إلى مكان ما، أو أن ينتسب إلى جهة أو جماعة أو حي؟¹

لا يختزل الانتماء المجالي في مكان الميلاد أو الجنسية، بل يتشكل عبر المسار المجالي للفرد والمعاني التي يضيفها على الأماكن التي ارتبط بها. وقد يستند إلى مراجع متعددة، من بينها أصل الأسرة ومكان الإقامة، كما يمتد من المجال المحلي إلى فضاءات أوسع كالدولة أو القارة. ومن ثم، يطرح سؤال: ما الذي يجعل الفرد يشعر بأنه «من هنا» أو «من مكان آخر»؟²

يتضح من ذلك أن الانتماء المجالي لا يمثل معطى ثابتا يحدد فقط بمكان الميلاد أو الإقامة، بل يتشكل ويتحول عبر المسار الذي يقطعه الفرد وعلاقته بالأماكن المختلفة. وتكتسب هذه الدينامية أهمية خاصة في دراسة الهجرة، لأنها تتيح فهم المكانة التي يواصل مجال الأصل احتلالها في مسار المهاجر، والمعاني التي يضيفها عليه بعد المغادرة، وكيف يعاد بناء علاقته به في ظل تجربة الاستقرار في مجال آخر.

تتميز الهجرة المغربية إلى الخارج باستمرار الروابط القوية بين المهاجرين وبلد الأصل، رغم استقرارهم الدائم في بلدان الاستقبال³. ولا يتعارض اندماج المهاجر في مجتمع الإقامة مع استمرار روابطه العابرة للحدود، إذ يمكن أن ينخرط فيه مع الحفاظ

¹ France Guérin-Pace, op. cit., p. 299.

² Ibid., p. 300.

³ Ottavia Schmidt di Friedberg, Marocains d'Europe : une perspective comparée, Marocains de l'Extérieur, Rabat, Fondation Hassan II pour les Marocains Résidant à l'Étranger et Organisation internationale pour les migrations, 2003, p. 9.

على علاقاته ببلد الأصل¹. كما أن الحركة والارتباط لا يتخذان مساراً خطياً أو متسلسلاً، بل يمكن أن يتغيرا عبر الزمن تبعاً للسياق².

إن الهجرة إذن لا تلغي علاقة مغاربة العالم ببلد الأصل، بل تعيد تشكيلها داخل فضاء علائقي يجمع بين مجالي الأصل والإقامة. كما يجد استمرار هذا الارتباط دعماً مؤسسياً من خلال مجموعة من السياسات والهياكل الموجهة إليهم، سواء في بلدان الإقامة أو عند العودة إلى الوطن، بما يساهم في الحفاظ على صلتهم بالمغرب واستمرار حضوره في مسارهم الهجروي. وتساعد المقاربة العبر وطنية على فهم هذا النمط من الارتباط الذي يتجاوز الحدود الوطنية ويعيد تنظيم علاقة المهاجر بمجالي الأصل والإقامة.

تتجسد العبر وطنية في العلاقات الاجتماعية التي ينشئها المهاجرون ويحافظون عليها بين مجتمعات الأصل والاستقرار، وتتخذ هذه العلاقات أشكالاً أسرية واقتصادية واجتماعية وتنظيمية ودينية وسياسية، وتسمح للمهاجر بالانخراط في أكثر من مجتمع في الوقت نفسه، من خلال ممارسات وقرارات وهويات تشكل داخل شبكات تربطه بمجال الأصل ومجال الإقامة³. ويكتسب هذا التصور أهمية خاصة بالنسبة إلى مغاربة العالم المنحدرين من المجالات الواحية، لأنه يوفر إطاراً لفهم استمرار علاقتهم بمجالاتهم الأصلية وإعادة تشكيلها في سياق الهجرة، دون اختزال الانتماء في الإقامة داخل مجال واحد.

في سياق الهجرة الواحاتية، ظل المهاجرون محافظين على ارتباطهم بالتراب الواحي⁴. فمغادرة الواحة لا تنهي الارتباط بها، إذ تظل حاضرة من خلال الروابط والمعاني والتمثيلات التي راكمها المهاجر خلال مساره. ومن ثم، يعاد تشكيل الانتماء إليها رغم الاستقرار في مجال آخر.

وفي هذا الإطار، تؤكد بعض الدراسات الميدانية المنجزة بواحات الجنوب الشرقي استمرار ارتباط مغاربة العالم بمجالاتهم الأصلية. فقد أظهرت دراسة ميدانية بواحة فجيج أن الهجرة لا تتخذ دائماً شكل مغادرة نهائية للواحة، إذ يظل المهاجر مرتبطاً بها من خلال العودة إليها بصورة دورية، إلى جانب ممارسات متعددة يتجسد عبرها هذا الارتباط⁵.

وتؤكد دراسة ميدانية أخرى بالواحة نفسها استمرار هذه الروابط، إذ أظهرت أن 90% من أفراد العينة يزورون أسرهم داخل الواحة، وهو ما اعتبره الباحث مؤشراً على استمرار الروابط الاجتماعية القوية للمهاجر الفجيحي تجاه الواحة كمجال

¹ Peggy Levitt, Nina Glick Schiller, Conceptualizing Simultaneity: A Transnational Social Field Perspective on Society, International Migration Review, vol. 38, no. 3, The Center for Migration Studies of New York, Inc., 2004, p. 1003.

² Ibid., p. 1011.

³ Linda Basch, Nina Glick Schiller, Cristina Szanton Blanc, Nations Unbound: Transnational Projects, Postcolonial Predicaments, and Deterritorialized Nation–States, London and New York, Gordon and Breach Science Publishers, 1994, p. 8.

⁴ Institut Royal des Études Stratégiques (IRES), op. cit., p. 13.

⁵ Gwenaëlle Janty, op. cit., p. 137.

والأسرة كمؤسسة اجتماعية¹. وتبين هذه النتائج أن ارتباط المهاجرين بواحة فجيج يستمر رغم الاستقرار خارجها، سواء من خلال العودة الدورية أو استمرار الروابط الاجتماعية والأسرية والمجالية.

وفي واحة تودغى، أظهرت دراسة ميدانية أن المهاجرين المستقرين بالخارج يحافظون على روابط اجتماعية واقتصادية قوية مع مجال الأصل، إذ لا يؤدي لم الشمل الأسري إلى انقطاع هذه الروابط، بل يستمر الالتزام تجاه الواحة في إطار عابر للحدود، ويمتد هذا الالتزام إلى الأجيال اللاحقة²، كما يمثل الرجوع إلى تودغى وبناء مستقبل داخلها هدفا معلنا لدى أغلب المهاجرين³.

ولا يقتصر هذا الانتماء المجالي لدى مغاربة العالم على واحتي فجيج وتودغى، بل يمتد إلى مجالات واحة أخرى بالجنوب الشرقي. ويبرز هذا الامتداد في واحات درعة، حيث أظهرت دراسة ميدانية أنجزت بواحات درعة الوسطى استمرار ارتباط المهاجرين بمجالتهم الأصلي، ومساهماتهم في الدينامية المحلية للواحات⁴. وفي المجال نفسه أكدت دراسة ميدانية أخرى أنجزت بواحي كناوة ومحاميد تعلق المهاجرين بمجال الأصل، رغم قسوة الظروف الطبيعية التي يعرفها المجال الواحي⁵.

وفي واحات تافيلالت، أشارت إحدى الدراسات الميدانية إلى استمرار ارتباط المهاجرين بمجالتهم الأصلي من خلال مجموعة من الممارسات، من بينها العودة إلى الواحة عند التقدم في السن⁶، وفي واحة زيز الأسفل ضمن مجال تافيلالت، أظهرت دراسة ميدانية أخرى أن الهجرة غالبا تندرج ضمن أشكال التضامن الأسري، إذ تظل الأسرة من أولويات المهاجر، ويواصل دعمها رغم الإكراهات التي يواجهها في مجال الاستقبال⁷. وتكشف هذه المؤشرات عن استمرار ارتباط المهاجرين بالمجال الواحي الأصلي، سواء من خلال حضور فكرة العودة مستقبلا، أو من خلال التزامهم تجاه المجال والأسرة المقيمة فيه.

إن الهجرة لا تؤدي إلى انقطاع مغاربة العالم عن مجالتهم الواحية رغم استقرارهم طويلا في بلدان الاستقبال، بل تعيد تشكيل انتمائهم إليها في سياق عابر للحدود. فمجال الأصل يظل حاضرا في مسار المهاجر من خلال ما يحمله من معان وذكريات وروابط اجتماعية وأسرية، كما يستمر باعتباره مجالا مرجعيا في تمثلاته ومشاريعه وتصوراته للمستقبل. ومن ثم، لا يبدو الانتماء إلى الواحة علاقة ثابتة مرتبطة بالإقامة داخلها فقط، بل علاقة دينامية يعاد بناؤها مع تغير المسار الهجروي وتراكم تجربة الاستقرار في الخارج، حيث يتداخل الارتباط بمجال الإقامة مع استمرار الصلة بمجال الأصل دون أن يلغي أحدهما الآخر. ويكشف ذلك أن الانتماء المجالي في سياق الهجرة لا يقاس فقط بمكان الإقامة الفعلي، بل أيضا بموقع مجال الأصل داخل ذاكرة المهاجر وتمثلاته ومشاريعه المستقبلية، وبالكيفية التي تستمر بها علاقته به رغم تغير مكان الاستقرار.

ويتخذ هذا الارتباط بالواحة تجليات متعددة، تشمل ما هو رمزي وعاطفي وما يرتبط بالممارسات والعلاقات التي يحافظ من خلالها المهاجر على صلته بمجال الأصل. كما أن هذه التجليات لا تظل ثابتة، بل قد تتغير بحسب مراحل المسار الهجروي،

¹ عبد الرزاق بيباح، هجرة العودة والتحويلات العمرانية في المجالات الواحية المغربية: دراسة سوسيولوجية، واحة فجيج نموذجًا، المجلة المغربية للبحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 3، العدد 1، 2024، ص. 262.

² Hein Gysbert de Haas, op. cit., p. 378.

³ Ibid., p. 380.

⁴ سعيد آيت عبد الواحد، مرجع سابق، ص. 27.

⁵ Mohamed Aït Hamza, B. El Faskaoui, op. cit., p. 68.

⁶ Monique Mainguet, Frédéric Dumay, Lahcen Kabiri, Boualem Rémini, op. cit., p. 919.

⁷ عبد الحكيم خريصي، مرجع سابق، ص. 124.

وأوضاع المهاجر، وطبيعة علاقته بالأسرة والمجال المحلي، وما يطرأ على تجربته في بلد الاستقبال. ومن ثم، فإن فهم إعادة تشكيل انتماء مغاربة العالم إلى المجال الواحي لا يقتضي الاكتفاء بإثبات استمرار الارتباط به، بل الوقوف أيضاً على الكيفية التي يعبرون بها عن هذا الانتماء. وهو ما يقود إلى البحث في أبرز تجلياته وأشكاله.

2- تجليات انتماء مغاربة العالم إلى مجالهم الواحية:

وسع المنظور العابر للحدود نطاق تحليل الهجرة ليشمل إلى جانب حركة الأشخاص، انتقال الرموز والسلع ورؤوس الأموال¹. فخلال العقود الأخيرة من القرن العشرين، تعززت الروابط بين المهاجرين ومن بقوا في مجالات الأصل، بفعل انخفاض تكاليف النقل والاتصال والتوسع العالمي للأنظمة البنكية، كما أسهمت هذه التحولات في تشكل الجماعات العابرة للحدود².

وبذلك، أسهمت التحولات المرتبطة بالعولمة في تقوية روابط المهاجرين ببلد الأصل، من خلال تسهيل التواصل والتنقل وتحويل الموارد بين مجالي الأصل والإقامة. ولم يعد استمرار هذه الصلات مرتبطاً بالقرب الجغرافي، بل أصبح ممكناً رغم البعد بفضل تعدد الوسائط التي تسمح للمهاجر بالحفاظ على حضوره وعلاقاته بمجاله الأصلي. ويهيئ ذلك لفهم تعدد الأشكال التي تتخذها هذه الروابط، سواء داخل الأسرة أو في علاقتها بالمجال الأوسع.

وتتخذ هذه الروابط أشكالاً متعددة، تتوزع بين أبعاد أسرية واقتصادية وثقافية واجتماعية؛ إذ يستمر المهاجر، رغم استقراره، في دعم أسرته بمجال الأصل وتحسين ظروف عيشها، فضلاً عن التطلع إلى العودة والاستثمار فيه. وبذلك، لا تبدو الهجرة فعلاً فردياً محضاً، بل ترتبط في كثير من الحالات بتحسين أوضاع الأسرة في بلد الأصل³. كما قد يستمر الانتماء إلى مجال الأصل من خلال الذاكرة والحنين والتخيل، حتى في ظل محدودية العلاقات الاجتماعية المباشرة معه⁴.

وبالتالي، تتخذ أشكال ارتباط المهاجر بمجال الأصل أبعاداً متعددة، لا تقتصر على الجوانب الاقتصادية والاجتماعية، بل تمتد أيضاً إلى أبعاد رمزية ووجدانية، بما يعكس استمرار علاقته بمجاله الأصلي رغم البعد الجغرافي عنه. ويبين ذلك أن الانتماء في سياق الهجرة لا يقوم فقط على الحضور الفعلي داخل المجال أو على كثافة العلاقات المباشرة معه، بل قد يستمر من خلال الذاكرة والتمثيلات والتطلعات المرتبطة بمجال الأصل. ومن ثم، يمكن لهذا الارتباط أن يجمع بين مستويات مختلفة، تتداخل فيها الممارسات المادية والاجتماعية مع الأبعاد الرمزية والعاطفية، وهو ما يظهر بوضوح في حالة الهجرة المغربية إلى الخارج.

في سياق الهجرة المغربية إلى الخارج، تتسم علاقة المهاجرين المغاربة بارتباط مستمر عبر الأجيال، من خلال ممارسات عابرة للحدود، من بينها العودة خلال العطلة، والتحويلات المالية، إلى جانب الزيجات العابرة للحدود بين أبناء الجيل الثاني المقيمين

¹ Bela Feldman-Bianco, Anthropology and Ethnography: The Transnational Perspective on Migration and Beyond, Etnográfica, vol. 22, no. 1, Centro em Rede de Investigação em Antropologia, Lisbonne, 2018, p. 210.

² Hein Gysbert de Haas, op. cit., p. 7.

³ Stephen Castles, Hein de Haas, Mark J. Miller, op. cit., p. 69.

⁴ Peggy Levitt, Nina Glick Schiller, op. cit., p. 1011.

بأوروبا والمقيمين بالمغرب¹، فضلا عن الاستثمار، والمشاركة في العمل الجماعي، والإسهام في بعض المبادرات المحلية والانخراط في الشأن العام. كما أسهمت تنقلاتهم وتجاربهم في بلدان الاستقبال في نقل أنماط جديدة في الاستهلاك والسكن والترفيه، وفي بروز قيم وممارسات مغايرة داخل مناطق الأصل².

وتتأكد قوة هذه الصلات أيضا من خلال نتائج استبيان إلكتروني أنجزه المجلس الاقتصادي والاجتماعي والبيئي سنة 2022، وشمل 4651 مشاركا من مغاربة العالم موزعين على 53 بلدا وخمس قارات، منهم من ولدوا هناك ومن يحملون جنسيات تلك البلدان. أظهرت نتائجه أن 92,94% من المشاركين يحافظون على روابط بالمغرب، ووصف 65,22% منهم هذه الروابط بأنها قوية، مع تصدر الروابط الأسرية والشخصية والثقافية. كما تتخذ هذه العلاقة أشكالا أخرى من الإسهام في تنمية المغرب، من خلال نقل الخبرات والكفاءات والاستثمار والتحويلات المالية، فضلا عن استمرار التفكير في العودة، سواء عبر الإقامة بالتناوب بين المغرب وبلد الإقامة أو من خلال العودة النهائية³.

وتبرز هذه المعطيات تعدد الأشكال التي يستمر من خلالها ارتباط مغاربة العالم بمن فيهم المنحدرون من المجالات الواحية ببلدهم المغرب، سواء عبر الروابط الاجتماعية أو الاقتصادية أو الثقافية أو العاطفية. كما تكشف أن هذا الارتباط يمكن أن يستمر عبر الأجيال، وأن يتخذ صورا متعددة بحسب مسارات المهاجرين وأوضاعهم وتجاربهم في بلدان الإقامة.

ويمكن الوقوف على علاقة مغاربة العالم بواحاتهم بشكل خاص من خلال عدد من الدراسات المنجزة في المجالات الواحية، بما يتيح التعرف على الممارسات التي يعاد من خلالها تشكيل الانتماء إلى المجال الواحي في سياق الهجرة الدولية.

حافظت الهجرة، بوصفها سمة مميزة للمجالات الواحية، على استمرار ارتباط الجماعات بمجالاتها الأصلية⁴، وفي هذا السياق، يعتبر Mohamed Aït Hamza أن الواحي لا يغادر بشكل نهائي، بل «يرحل ليقى»، إذ يوجه المهاجرون جزءا من مدخراتهم إلى مجالاتهم الواحية، سواء عبر الاستثمار في الأرض والسكن والفلاحة، أو من خلال الاستثمار الاجتماعي المرتبط بتدريس الأبناء وتحسين ظروف العيش، بما يعكس استمرار صلتهم بالمجال رغم الغياب الجسدي⁵.

¹ Hein de Haas, Un siècle de migrations marocaines : transformations, transitions et perspectives d'avenir, Marocains de l'extérieur 2013, sous la direction de Mohamed Berriane, Fondation Hassan II pour les Marocains Résidant à l'Étranger, Rabat, 2014, p. 76.

² Mohamed Berriane, Les dynamiques de l'émigration marocaine et leurs effets sur les régions d'origine, communication présentée dans le cadre de Transatlantic Dialogues on Migration and Development Issues: Mexico-US and Morocco-EU Experiences, Zacatecas, Mexique, 16-20 mars 2009, p. 10.

³ Conseil Économique, Social et Environnemental (CESE), op. cit., pp. 58-60.

⁴ Institut Royal des Études Stratégiques (IRES), op. cit., p. 13 .

⁵ Mohamed Aït Hamza, La dynamique des oasis sud atlasiques du Maroc, propos recueillis par Mostafa Errahj, Alternatives Rurales, n° 10, mars 2025, p. 6.

ويكشف تعبير آيت حمزة عن مفارقة أساسية في الهجرة الواحاتية، إذ لا تعني المغادرة الانفصال عن المجال، بل قد تصبح وسيلة للحفاظ على الصلة به ودعم استمراره. فالهجرة تتيح للمهاجر اكتساب موارد وإمكانات يعاد توجيه جزء منها نحو الواحة، مما يجعل الغياب الجسدي متزامنا مع استمرار الحضور الاقتصادي والاجتماعي داخل مجال الأصل.

وفي واحة تودغي، تبين إحدى الدراسات أن الهجرة الدولية تمتد عبر أجيال، مع استمرار روابط اجتماعية ومالية قوية بالمجال الأصلي رغم الاستقرار في بلدان الاستقبال. وتتجلى هذه الروابط في التحويلات المالية، والاستثمار في السكن والتعليم والفلاحة، إلى جانب الزيجات العابرة للحدود بين أبناء الأجيال المهاجرة وأفراد من مجال الأصل¹. كما تحتل الاستثمارات العقارية مكانة مهمة ضمن توظيف موارد الهجرة، إذ تميل الأسر المهاجرة إلى تشييد مساكن وامتلاك أكثر من مسكن، كما يوجه جزء من هذه الموارد نحو المشروعات التجارية².

وفي واحة فجيح، تشير دراسة ميدانية إلى استمرار صلات المهاجرين المنتظمة بمجاءهم الأصلي، من خلال العودة خلال العطل والأعياد، كما ينتظمون في جمعيات خارج المغرب. ويتجسد هذا الارتباط أيضا في التحويلات المالية الموجهة إلى الأسر، والتي يخصص جزء منها لصيانة بساتين النخيل وترميم المباني التقليدية، إلى جانب إسهامهم في إدخال نماذج معمارية وزراعية جديدة إلى الواحة³.

تكشف حالتا تودغي وفجيح عن تعدد أشكال ارتباط مغاربة العالم بالمجال الواحي، إذ تتداخل في هذه العلاقة أبعاد أسرية واقتصادية واجتماعية ورمزية، تتجسد في التحويلات والاستثمار والعودة الدورية والتنظيم الجماعي والاهتمام بالملكيات في مجال الأصل. ويبين ذلك أن آثار الهجرة لا تقتصر على الأسرة، بل تمتد إلى المجال الواحي نفسه.

وفي واحات درعة الوسطى، يساهم المهاجرون في استمرار دينامية الواحات من خلال بعض المشاريع المنجزة، وفي افتتاح المجال على الخارج عبر إدخال نماذج مختلفة من حياة المدن⁴، كما تكشف دراسة ميدانية أُنجزت في المجال نفسه بواحي كناوة ومحاميد عن أشكال متعددة من ارتباط المهاجرين بمجاءهم الأصلي، كالتمسك بأراضيهم بعد الهجرة لكونها تمثل جذورهم، والتحويلات المالية الموجهة إلى المنطقة التي تسهم في بقاء أفراد الأسرة داخل القرية، إلى جانب الإسهام في استمرار النشاط الزراعي وإنشاء أنشطة في مجالات التجارة والنقل والسياحة وتنشيط قطاع البناء⁵.

¹ Hein Gysbert de Haas, op. cit., pp. 378-379.

² Ibid., p. 384.

³ Gwenaëlle Janty, op. cit., pp. 137-138.

⁴ سعيد آيت عبد الواحد، مرجع سابق، ص. 27.

⁵ Mohamed Aït Hamza, Brahim El Faskaoui, Alfons Fermin, Migration and Environmental Change in Morocco: The Case of Rural Oasis Villages in the Middle Drâa Valley, Morocco Case Study Report, EACH-FOR Project, Deliverable D 2.5.2.3, Erasmus University Rotterdam (EUR), 2009, p. 24.

كما يمتد هذا الارتباط بهاتين الواحتين إلى أشكال من التضامن الأسري، من خلال التكفل بالآباء والأبناء، وأفراد آخرين من الأسرة¹. وتعكس هذه الممارسات موقع المهاجر داخل شبكة العلاقات المحلية، إذ تظل الأرض والأسرة والجماعة عناصر حاضرة في علاقته بالمجال الواحي، في الوقت الذي تسهم فيه موارد الهجرة في بعض دينامياته الاقتصادية والاجتماعية.

وفي دراسة ميدانية أنجزت في عدد من واحات تافيلالت، أشبارو والجرف وألنيف، تبين أن ارتباط المهاجرين بمجالهم الأصلية يتجسد في عدد من الممارسات، منها التحويلات المالية الموجهة إلى الأسر، إلى جانب توجيه جزء من موارد الهجرة نحو بناء المساكن واقتناء بعض التجهيزات المرتبطة بالنشاط الفلاحي، فضلا عن استمرار الزيجات العابرة للحدود مع أفراد من مجال الأصل².

وتنسجم هذه المعطيات الميدانية مع ما تطرحه نظرية أنظمة الهجرة، التي ترى أن الهجرة لا تقتصر على انتقال الأفراد، بل تنظم ضمن شبكة من المبادلات والتفاعلات العابرة للحدود التي تربط مجالات الأصل ومجالات المستقبل.

ويمكن تقسيم هذه المبادلات إلى ما يتجه أساسا نحو الأسرة، من خلال التحويلات والتكفل بأفرادها واستمرار بعض الروابط الزوجية، وما يتجه بصورة أوسع نحو المجال، من خلال الاستثمار في الأرض والسكن والممتلكات، والمشاركة في العمل الجماعي، والإسهام في بعض المبادرات والمشروعات المحلية والشأن العام. غير أن هذا التمييز لا يعني الفصل بين المستويين، إذ تتداخل الروابط الأسرية مع العلاقة بالمجال، وتشكل الأسرة أحد أهم وسائط استمرار الصلة بالواحة وإعادة إنتاجها.

ويكتسب امتداد بعض هذه الممارسات إلى الأجيال اللاحقة دلالة خاصة، لأنه يبين أن الانتماء إلى المجال الواحي لا يرتبط حصرا بالتجربة المباشرة للجيل الأول، بل يمكن أن يعاد إنتاجه اجتماعيا عبر الأسرة والزواج والزيارات والممتلكات وغيرها من الوسائط التي تصل الأجيال الجديدة بمجال الأصل. ومن ثم، فإن الانتماء المجالي لا يقتصر على العلاقة التي تتشكل مع المجال قبل الهجرة، بل تستمر هذه العلاقة بعد الهجرة رغم الاستقرار خارج الوطن، ويعاد تشكيلها ضمن شروط اجتماعية ومجالية جديدة.

¹ Ibid., p. 25.

² Monique Mainguet, Frédéric Dumay, Lahcen Kabiri, Boualem Rémini, op. cit., pp. 917-918.

خاتمة:

يتضح مما سبق أن الهجرة الواحاتية لا يمكن فصلها عن خصوصيات المجال الذي تنطلق منه، فالمجال الواحي يشكل منظومة مجالية واجتماعية وثقافية واقتصادية تقوم على تفاعل الموارد الطبيعية والتنظيمات المحلية والعلاقات الأسرية والأعراف والأنشطة الاقتصادية. غير أن هذا المجال يواجه إكراهات ترتبط بندرة المياه، وتراجع بعض الأنشطة التقليدية، ومحدودية فرص الشغل وضعف النشاط الاقتصادي، وهي عناصر تسهم، إلى جانب عوامل أخرى، في تشكيل الهجرة الدولية، دون أن تؤدي إليها بصورة آلية أو متشابهة لدى جميع السكان الواحيين.

وتشير المعطيات والدراسات المعتمدة إلى أن الهجرة الواحاتية تتشكل من خلال تفاعل عوامل بيئية واقتصادية واجتماعية ومجالية، إلى جانب قدرات الأفراد والأسر وتطوعاتهم، ودور الشبكات والسياسات المؤسسية، وما يتيح مجالات الاستقبال من فرص. وهو ما يبرز الحاجة إلى الجمع بين عدد من المقاربات النظرية لفهم هذه الظاهرة، بدل اختزالها في عامل منفرد أو تفسيرها فقط من خلال ثنائية الدفع والجذب. كما يبين تفاوت القدرة على الهجرة أن وجود دوافع للانتقال لا يعني بالضرورة تحقق الهجرة، إذ يرتبط ذلك أيضا بالموارد والإمكانات والشروط التي تسمح بتحويل التطلع إلى الهجرة إلى إمكانية فعلية.

ولا تتوقف آثار الهجرة عند مغادرة المجال الواحي، إذ تبين الدراسات المنجزة ببعض واحات الجنوب الشرقي، فحجيج وتودغى ودرعة وتافيلالت استمرار ارتباط مغاربة العالم بمجالاتهم الواحية الأصلية رغم الاستقرار في بلدان الإقامة. ويتجسد هذا الارتباط في أبعاد أسرية واجتماعية واقتصادية وثقافية ورمزية ووجدانية. كما تمتد بعض هذه الممارسات العابرة للحدود إلى الأجيال اللاحقة، بما يبين أن الانتماء إلى الواحة لا يرتبط بالحضور المادي داخلها فقط، بل يمكن أن يستمر ويعاد إنتاجه اجتماعيا عبر الأسرة والزيارات والزواج والممتلكات وغيرها من الوسائط التي تصل المهاجرين بمجالاتهم الأصلية.

وتشير هذه الممارسات أيضا إلى أن علاقة المهاجر بالواحة لا تظل في مستوى الارتباط الرمزي والعاطفي فقط، بل تمتد آثارها إلى المجال نفسه من خلال التحويلات والاستثمارات والمشروعات والأنشطة الاقتصادية والاجتماعية المختلفة. ويمكن فهم ذلك باعتباره شكلا من أشكال استمرار حضور المهاجر داخل المجال الواحي رغم الغياب الجسدي، بما يجعل الهجرة جزءا من التحولات التي يعرفها هذا المجال، في الوقت الذي يظل فيه المجال نفسه حاضرا في مسار المهاجر وتمثلاته ومشاريعه.

وبذلك، يمكن فهم الهجرة الواحاتية باعتبارها مسارا مركبا بين المغادرة واستمرار الارتباط بالمجال؛ فهي من جهة ترتبط بجملة من التحولات والإكراهات التي تؤثر في شروط العيش داخل الواحات، ومن جهة أخرى لا تؤدي بالضرورة إلى قطع الصلة بها، بل يعاد تشكيل علاقة المهاجر بمجال الأصل في ظل الاستقرار داخل مجال جديد. ومن ثم، يعاد تشكيل الانتماء المجالي ضمن مسار تتداخل فيه خصوصيات الواحة وتجربة الهجرة والممارسات العابرة للحدود واستمرار الروابط مع مجال الأصل عبر الزمن والأجيال، بما يجعل الانتماء إلى الواحة علاقة دينامية ومتجددة أكثر منه ارتباطا ثابتا تحدده الإقامة داخل المجال.

المراجع والمصادر:

- آيت عبد الواحد، سعيد، الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية والبيئية لدينامية الهجرة بواحات درعة الوسطى جنوب المغرب، مجلة الدراسات الأفريقية وحوض النيل، المجلد 4، العدد 13، المركز الديمقراطي العربي، برلين، 2021.
- السنون، فريدة؛ كريم، إلهام؛ حزوي، محمد، الجاذبية المحلية لطنجة الكبرى بين تحديات الهجرة وآفاق التنمية المستدامة، ضمن: الهجرة الدولية والديناميات السوسيوإقليمية: السياقات - التجليات - الإفرازات، إشراف إبراهيم الأنصاري وعبد القادر التايري، برلين، المركز الديمقراطي العربي، 2021.
- العساوي، عبد الرحمان، المجال الواحي والموارد المائي: الخطرات، مجلة المعرفة، العدد 14، 2024.
- بوعبيد، نور الدين؛ غازي، عبد الخالق، الإفراف السكاني: المظاهر والأسباب: نموذج واحة مدينة فجيح (الحدود المغربية الجنوبية)، مجلة العلوم الإنسانية والطبيعية، المجلد 2، العدد 6، 2021.
- خريصي، عبد الحكيم، المجال والهجرة: من الاستقرار الاجتماعي نحو التروح الجماعي: دراسة سوسيولوجية لواحة زيز الأسفل، مجلة الدراسات الأفريقية وحوض النيل، المجلد 6، العدد 28، المركز الديمقراطي العربي، برلين، ألمانيا، 2024.
- خريصي، عبد الحكيم، مراسم طقوس الزواج لدى البنيات الاجتماعية بتافيلالت: دراسة سوسيو أنثروبولوجية في البنية الثقافية لقبائل بني أحمد، مجلة العلوم الاجتماعية، المجلد 9، العدد 36، المركز الديمقراطي العربي، برلين، 2025، ص. 98-79.
- نصرالدين، زكرياء، القانون العرفي بواحات الجنوب الشرقي المغربي: السياق وآفاق التوظيف - حالة إقليم تنغير، مجلة الدراسات الأفريقية وحوض النيل، المجلد 4، العدد 13، المركز الديمقراطي العربي، برلين، ألمانيا، 2021.
- AÏT HAMZA, Mohamed, La dynamique des oasis sud atlasiques du Maroc, propos recueillis par Mostafa Errahj, Alternatives Rurales, n° 10, 2025.
- AÏT HAMZA, Mohamed, EL FASKAOUI, Brahim, FERMIN, Alfons, Les oasis du Drâa au Maroc : rupture des équilibres environnementaux et stratégies migratoires, Hommes & migrations, n° 1284, 2010, pp. 56-69.
- AÏT HAMZA, Mohamed, EL FASKAOUI, Brahim, FERMIN, Alfons, Migration and Environmental Change in Morocco: The Case of Rural Oasis Villages in the Middle Drâa Valley, Morocco Case Study Report, EACH-FOR Project, 2009.
- BASCH, Linda, GLICK SCHILLER, Nina, SZANTON BLANC, Cristina, Nations Unbound: Transnational Projects, Postcolonial Predicaments, and Deterritorialized Nation-States, London and New York, Gordon and Breach Science Publishers, 1994.

- BEN SLYMEN, Syrine, Sentiment d'appartenance et intelligence territoriale : une application au contexte tunisien, thèse de doctorat en cotutelle, sciences de l'information et de la communication, Université Nice Sophia Antipolis et Université de Tunis El Manar, 2014.
- BERRIANE, Mohamed, Les dynamiques de l'émigration marocaine et leurs effets sur les régions d'origine, communication présentée dans le cadre de Transatlantic Dialogues on Migration and Development Issues: Mexico-US and Morocco-EU Experiences, Zacatecas, Mexique, 16-20 mars 2009.
- -CASTLES, Stephen, DE HAAS, Hein, MILLER, Mark J., The Age of Migration: International Population Movements in the Modern World, 5e édition, Basingstoke, Palgrave Macmillan, 2014.
- -CHANNAOUI, Souhail, AQIL, Safae, HDOUDOUCH, Achraf, ESSARIOUI, Adil, MEZIANI, Reda, Phenotypic diversity of date palm male clones (Phoenix dactylifera L.) in Morocco: a selection study, Discover Plants, vol. 2, 2025.
- CHAUDHURI, Sarbajit, MUKHOPADHYAY, Ujjaini, The Harris-Todaro Migration Model and Introduction of the Informal Sector, Revisiting the Informal Sector: A General Equilibrium Approach, New York, Springer, 2010, pp. 33-53.
- CONSEIL ÉCONOMIQUE, SOCIAL ET ENVIRONNEMENTAL (CESE), Renforcer le lien intergénérationnel entre les Marocain(e)s du Monde et le Maroc : les chances et les défis, 2022.
- DE HAAS, Hein Gysbert, Migration and Development in Southern Morocco: The Disparate Socio-Economic Impacts of Out-Migration on the Todgha Oasis Valley, PhD Dissertation, Katholieke Universiteit Nijmegen, 2003.
- FATNI, Mohamed, L'homme, base de la vie durable dans les oasis, Actes du Symposium International sur le Développement Durable des Systèmes Oasiens, sous la direction de Bouchaib Boulanouar, Chafik Kradi, Erfoud, Maroc, INRA, 2005.

- FELDMAN-BIANCO, Bela, Anthropology and Ethnography: The Transnational Perspective on Migration and Beyond, Etnográfica, vol. 22, no. 1, Centro em Rede de Investigação em Antropologia, Lisbonne, 2018, pp. 195–215.
- FOOD AND AGRICULTURE ORGANIZATION OF THE UNITED NATIONS (FAO), Terminal evaluation of the project “Revitalizing oasis agroecosystems through a sustainable, integrated and landscape approach in the Drâa Tafilalet region”, 2025.
- FORESIGHT, Migration and Global Environmental Change: Future Challenges and Opportunities, Final Project Report, The Government Office for Science, London, 2011.
- GUÉRIN-PACE, France, Sentiment d’appartenance et territoires identitaires, L’Espace géographique, tome 35, n° 4, 2006, pp. 298–308.
- GUILLET, François, compte rendu de France Guérin-Pace et Éléna Filippova, Ces lieux qui nous habitent. Identité des territoires, territoires des identités, Paris, INED-Éditions de l’Aube, 2008, 277 p., Revue historique, n° 650, 2009.
- INSTITUT ROYAL DES ÉTUDES STRATÉGIQUES (IRES), Rapport de synthèse des travaux de la journée de réflexion prospective sur la gestion durable des oasis : complexité et défis – État actuel des oasis marocaines et perspectives de leur évolution dans le contexte du changement climatique, avril 2025.
- JANTY, Gwenaëlle, L’oasis de Figuig, une bulle patrimoniale en interaction avec le monde, Actes du colloque international Les oasis dans la mondialisation : ruptures et continuités, sous la direction d’Anaïs Marshall, Emilie Lavie, Jean-Louis Chaléard, Monique Fort et Jérôme Lombard, Paris, 2014.
- LEE, Everett S., A Theory of Migration, Demography, vol. 3, n° 1, 1966, pp. 47–57.
- LEVITT, Peggy, GLICK SCHILLER, Nina, Conceptualizing Simultaneity: A Transnational Social Field Perspective on Society, International Migration Review, vol. 38, no. 3, The Center for Migration Studies of New York, Inc., 2004, pp. 1002–1039.

- MAINGUET, Monique, DUMAY, Frédéric, KABIRI, Lahcen et RÉMINI, Boualem, Prodrômes of Desertification in the Oasis of Tafilalet (Morocco) and Specific Local Solutions, in BRAUCH, H. G. et al. (eds.), Coping with Global Environmental Change, Disasters and Security: Threats, Challenges, Vulnerabilities and Risks, Springer-Verlag Berlin Heidelberg, 2011, pp. 901–919.
- MAZZELLA, Sylvie, Sociologie des migrations, 4e éd. mise à jour, Paris, Presses Universitaires de France, 2025.
- SCHMIDT DI FRIEDBERG, Ottavia, Marocains d'Europe : une perspective comparée, Marocains de l'Extérieur, Rabat, Fondation Hassan II pour les Marocains Résidant à l'Étranger et Organisation internationale pour les migrations, 2003.
- SJAASTAD, Larry A., The Costs and Returns of Human Migration, Journal of Political Economy, vol. 70, n° 5, part 2, 1962, pp. 80–93.
- TAYLOR, J. Edward, The New Economics of Labour Migration and the Role of Remittances in the Migration Process, International Migration, vol. 37, n° 1, 1999.